وقفة مع مسرحية ليلة دمشق

بقلم: محمود محمد كحيلة
مصر

نشرت مجلة الأدب الإسلامي في العدد (٤٥) نصا مسرحيا بعنوان ليلة دمشق، وهو واحد من أهم وأروع النصوص المسرحية ذات الصبغة الإسلامية التي اطلعت عليها في الآونة الأخيرة، وهو نص نموذجي يمكن القياس عليه والانطلاق منه إلى الصحوة التي ننشدها نحن المخلصين لأسلمة هذا الكيان، لأنه منبر للكلمة، والكلمة كما جاء بحديث نبينا عليه الصلاة والسلام: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم في المستدرك.

وجاء النص موافقاً ومطابقاً لهذا المعيار وغيره من الشروط والمواصفات التي تجعل من مسرحية «ليلة دمشق» عملاً إسلامياً يثاب به كاتبه «صالح محمد المطيري» - إن شاء الله - ويتعظ ويفيد ويتمتع به قارئه.

يعرض النص لمرحلة من التاريخ الإسلامي فتن فيها المسلمون أنفسهم، واستمرأ الواحد منهم ظلم أخيه، وموقع الحادث لا الأحداث هو «دمشق»، أما زمنها فهو عام (٢٢٠) للهجرة إبان حُكم الخليفة «المأمون» حيث كان عامله على دمشق هو (عنبسة بن خديج) وكان رجلاً طماعاً وظالماً، ولذا فرض على الأهالي ضرائب باهظة باسم الخليفة، مما أدى إلى ثورة الناس وتجمهرهم، ولكنه تمكن من قمعهم، وألقى القبض على أشدهم، ثم استثمر الأمر في التخلص ممن يكيد لهم لأمور لا دخل لها بالحكم ولا بالثورة، وكان المثال الدرامي على ذلك هو إلقاء القبض على واحد من أكثر الناس التزاماً ألا وهو «مسعود بن ثابت» المعروف بـ«مسعود الدمشقي» الذي انتزعه جنود (عنبسة) من وسط أفراد أسرته الطيبة المسالمة حال عودته من سفر كان أبعد ما يكون به عن «دمشق» بحجة أن «عنبسة» يطلبه ليستشيره في أمر مهم يتعلق بالزراعة التي لا أحد في البلاد أخبر بها منه، لذا يودع أسرته مطمئناً إلى حيث عنبسة، حيث يقاد الرجل البريء إلى «السجن» في دمشق، وسرعان ما يتم التخلص منه وترحيله مع عدد كبير من الرجال إلى سجن الخليفة «المأمون» مع قائمة من الجرائم والأوزار أبسطها تزعم الفتنة وتبني الفساد، مما يجعل أبسط الأحكام بشأنهم هو الإعدام الذي سُرعان ما يتم الإعداد لتنفيذه بل والبدء بمن يُعْرف ببراءته وهو الدمشقي الذي ما يكاد السيف يعانق رقبته حتى يصدر «العباس» صاحب شرطة المأمون والقائم على التنفيذ

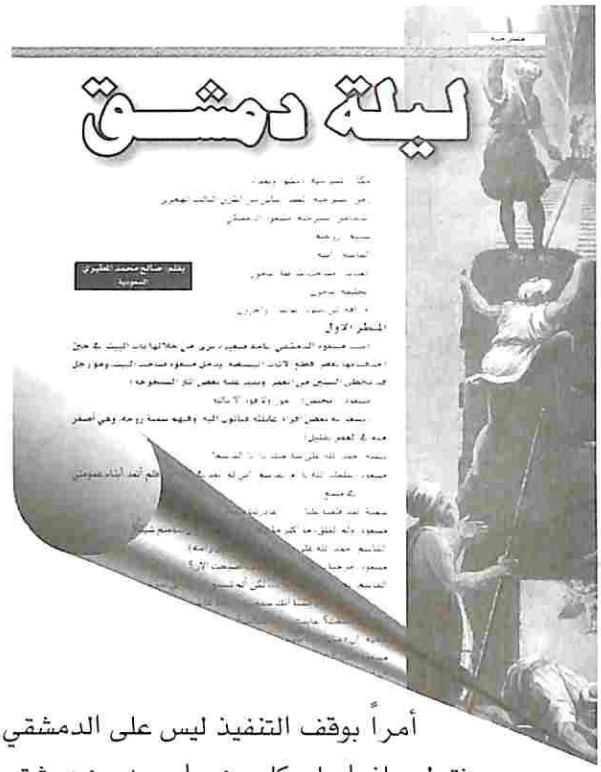

أمراً بوقف التنفيذ ليس على الدمشقي فقط، وإنما على كل من جاء معه من دمشق، ويغضب الخليفة المأمون من ذلك ويُرسل في طلب العباس الذي ينتظر حتى يأمره الخليفة بالكلام، فيستهل دفاعه عن قراره أنه على أتم استعداد لأن يُفدي هذا الدمشقي بروحه، لأنه فعل ذلك من أجله ومن أجل الخلافة في فتنة سابقة كان الناس فيها أكثر قوة، لذلك أرسله الخليفة على رأس الجند وتغلب الأهالي عليهم، وكادوا يفتكون به لولا أن حماه هذا الدمشقي وآواه في بيته حتى انتهت الفتنة، وأضاف: إن رجلاً كهذا سبق بإظهار الولاء للخلافة لابد أنه لا ينقلب عليها. وحتى لو انقلب ففي عنقي له فضل لا يمكنني إنكاره، ويقرر الخليفة أن يحقق بنفسه في الأمر، ويستدعي المتهمين والجنود الذين اصطحبوهم من دمشق. فيصل إلى اليقين من فساد عامله «عنبسة» الذي ينتقم من «الدمشقي» لأنه رفض أن يبيعه أرضه، ولذا يأمر الخليفة بعزل «عنبسة بن خديج» من الولاية بعد رد ما أخذه من أموال ومحاكمته على ما اقترفه من ذنب في حق الناس، أما الدمشقي فقد أمر الخليفة بعودته إلى أهله سالماً غانماً.

وقد لمسنا أن النص متوازن شيق، ذو حوار متوافق، فصيح بلهجة مسرحية وعبارات جيدة الصناعة زاخرة بالجماليات اللفظية والتركيبات والاستعارات المسرحية، تعكس خبرة ومهارة وموهبة يتمتع بها الكاتب «صالح محمد المطيري» الذي حمل نصه مضموناً غنياً ومثالياً شاملاً للكثير من الحكم دون تعمد أوخطابية. فهو يدعو القارئ أو المشاهد إلى العمل الصالح موضحاً أهميته ومبيناً كيف ينجي صاحبه من خلال قول الخليفة: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء» والكلمة في موقعها لذلك تتخلل وجدان المتلقي دون أن يدرك أنها نصيحة أو توجيه، لأن الكاتب تجنب المباشرة في التأكيد على القيم والاستنتاج في ترسيخ العِبر من حقيقة أن الشر لابد ساقط، وهناك بعض التحفظات حول الإعادة والتكرار في بعض الجمل والمواقف بالنص الذي يتغلب فيه السرد على الفعل الدرامي. إلى جانب تأجيل التنويه عن الخلاف القائم قبل بداية النص بين «الدمشقي» وبين «عنبسة» وهو ما يمنح الصراع الدرامي مزيداً من القوة والإثارة، كذلك ورود عبارة على لسان رئيس العسكر في أول مشاهد النص وهو (شاهدنا رجلاً يدخل هذا البيت قبل وقت ليس بالطويل) وهي جملة حقيقية، ولكن لا علاقة لها بالأحداث قبل أو بعد ذلك .

ومن التحفظات الشكلية التي لا تُفسد النص قضية فصل المشاهد بإغلاق الستار وهو أمر أصبح مستبعداً في المسرحيات القصيرة، ويحل محله الإظلام الذي يعمل عمله في الفصل بين الأزمنة والأمكنة داخل الأحداث المسرحية، التي أعود فأقول إنها نموذجية وغير مسبوقة، لذلك دفعتني دفعاً للكتابة عنها لإحداث الفعل الذي ينتظره أغلب كُتاب الدراما الإسلامية بأن يكون لأفعالهم الكتابية ردود فعل جماهيرية أو نقدية.

والله نسأل أن يمن على أمتنا الإسلامية بمزيد من مثل هذا الكاتب الموهوب في فرع من الكتابات الأدبية نحن في مسيس الحاجة إلى ازدهاره وانتشاره ليكون لدينا بديل مسرحي إسلامي ■